**أَعبثٌ نحنُ في وطنِ القلقِ ؟**

أعزّائي أساتذة وموظّفي وطلّاب جامعة القدّيس يوسف،

إنّ طَيْفَ خِطّيبة القدّيس يوسف ظهرَ مرارًا فوق قبّة كاتدرائيّة مار بطرس وبولس في منطقةِ المصيطبة. نورٌ خاطفٌ، غمامةٌ مُنيرةٌ، فتاةٌ تنبثقُ من وسطِ نورٍ وهّاجٍ؛ والنّورُ انبعثَ حتّى من الحجر الّذي صُنِعت منه القبّة. زحفَ عشرات ُالألوف من المـُسلمين والمسيحيّين لمشاهدة المـُعجزة؛ فيما ثبّتَ بطريركُ السّريان الأرثوذكس آنذاك – عام ١٩٧٠ – هذا الظّهور العجائبيّ. ولكن، ما سبب العودة لهذا الخبر القديم وسط أخبار وطنِنا الموجِعَة ؟

أيُّها الأعزّاء، في أوقات الاضطراب والقلق نتساءَلُ لماذا كلّ تلك الآلام ! لماذا نحنُ ؟ وما المعنى ؟ أعبثٌ نحنُ في وطنِ القلقِ ؟ ونبحثُ في كلِّ خارجٍ من دون الباطن. إنّما، لا بدّ لنا أن نلتفتَ إلى الباطن، إلى أوقاتِ الإنبساط في ذاكرة تاريخنا. لا بدّ لنا أن نستشِفَّ لبنانَ الجوهر. والرّوحُ هي ما يُعبِّر عن الجوهر. فالـ ‘لماذا’ سؤالٌ روحيٌّ نستقبل جوابه. أوَلَمْ يقُلْ إرنست رينان أنّ "الأمّةَ روحٌ، وما أرضها، وأوديتها، وجبالها، وغاباتها، وأنهرها، وشواطئ بحارها، إلّا العنصر المادّيّ، أو الجسم الّذي روحه الإنسان". أوَلا تشعرون بروحٍ ما تجمعنا نحن أبناء هذه الجامعة على رغمِ اختلاف مكاننا وزماننا ؟ وكما أكّد المونسنيور ميشال حايك "ألرّوحُ هي المبتدأ وإلّا فالموارنةُ خبر"، كذلك يصحُّ القولُ أنّ الرّوحَ هي المبتدأ وإلّا فلبنانُ خبرًا. فهلّا نتطلّعُ إلى هذه الرّوح لنستقيَ ونتذوّقَ ونتساءَل: أعبثٌ نحنُ في وطنِ القلقِ ؟

وفجأةً تُستَحضرُ إجابة الفيلسوف كمال يوسف الحاج: "لبنانُ وطنُ القلقِ لأنّهُ وطنُ الإيمان". نعم، فما القلق والاضطرابات والمشاكل الّتي تعصفُ بلبنان الوجود، سوى دليلٍ على أزمةٍ في وطن الإيمان، في بنيان لبنان الجوهر. لذلك،

فلتكُنْ عودةٌ إلى الجوهرِ فبناء الشّراكة الحقيقيّة الوطنيّة.

فلتَكُنْ عودةٌ إلى عشراتِ الألوف من المـُسلمين والمسيحيّين لمشاهدة المـُعجزة.

فلنؤمن بوطنِ الإيمان، من دون أن نغفلَ أنّ الإلحادَ نِعمة.

لنُؤمنْ بلبنانَ الجوهر فالرّسالة.

لنَبْنِ لبنانَ الثّقة والمغفرة فالمصالحة.

لنَبْنِ لبنان الثّقافة والأخلاقَ فالحضارة.

لِنَبْنِ لبنان القوّة الفكريّةـ فنُنتِجُ في المجالاتِ الفلسفيّة والسّياسيّة واللّاهوتيّة وسواها.

فليَكُنْ إبداعٌ وتجديدٌ فمعركةٌ فكريّةٌ.

إنَّ تقدّمَ الدّولةِ وتقدّمنا لا يُقاسُ بالقدراتِ العسكريّة، ولا بالقوّة الإقتصاديّة، لا بالمـُمتلكات ولا بالضّمانات، ولا حتّى بسلامٍ مُزيّف، إنّما بالقوّة الثّقافيّة والأخلاقيّة وبالنّضال لبناء الوطن. ولنتأكّد:

لن ينهارَ جبلُ صنّينَ بانهيار القطاع المصرفيّ.

ولن تغرقَ صخرةُ الرّوشة بغرق العملةِ الوطنيّة.

ولن يُفجِّرَ اليأسُ بيروتَ بتفجير المرفأ.

لن ينحنيَ الأرزُ بانحناء رؤوسِ وتواطئِ المسؤولين والمـُتفرِّجين.

لن نركع لنظامٍ فاسد يركعُ ويُمجِّدُ آلهة المال والسّلطة.

ليسَ من العبثِ أنّنا هنا. فلنُؤمن أنّ في رحمِ الموتِ قيامة. وكما يقول القدّيس فرنسيس الأسّيزي " كلّ الظّلامِ في العالم لا يقدرُ أن يُطفئَ نورَ شمعةٍ واحدة". فلن ننهار، ولن نغرق، ولن نيأس، ولن ننحني، ولن نركعَ ما دُمنا نركُنُ لنونِ الجماعة، وما دُمنا نُقسِمُ أن نبقى مُوَحَّدين ونعملُ دفاعًا عن لبنان العظيم. لننضمَّ إذًا إلى ضمير المتكلّم للجمع الحاضر، ولنَكُنْ حاضرينَ لحضورِ عشرات الألوف من المـُسلمين والمسيحيّين، لا إلى كاتدرائيّة مار بطرس وبولس في المصيطبة، بل في مسيرة نحو النّور الوهّاج، نحو النّورِ الكامنِ في وجدانِ لبنانَ الجوهر، وطن الإيمان. ولنَنهَلْ من الرّوحِ متسائلين صارخين: أيّتُها الرّوحُ، أعبثًا نحنُ هنا في وطن القلقِ ؟ وبعدُ، فلنطمئنْ مع جلال الدّين الرّومي مُدرِكين: "إن كان النّور ينبعُ من القلب، فإنّنا لن نضلَّ الطّريقَ أبدًا".